من تراب الطريق (٤٥٨) مع الجاحظ(*)

ورث جيلنا حب واحترام الجاحظ ـ عن أضلاع التنوير فى القرن العشرين .. العقاد وطه حسين والمازنى وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وأحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم .. وزاد احترامنا له وتعلقنا به عندما التهمنا أمهات مؤلفاته : البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان ، ورسائله العديدة التى امتلأت باهتماماته اللافتة بالفئات المهمشة أمثال : لصوص النهار ، ولصوص الليل ، ورسائل القيان ، والبرصان والعرجان والعميان ، ومن رسالته : «التربيع والتدوير» .. وهى الرسالة التى فتحت باب «الرسائل الأدبية» فى النثر العربى ، ونالت مع كتبه شهرةً ، ظلت حاضرة لأكثر من ألف عام .. لم تفقد جدتها .. ينشدها الأدباء وطلاب المعرفة ودراسة التاريخ والآداب .

كان أبو عثمان عمرو بن بحر (٧٦٧ ـ ٨٦٨ م) الشهير بالجاحظ لجحوظ عينيه ، أشهر أدباء القرنين الثانى والثالث الهجريين (١٥٠ ـ ٢٥٥ هـ) .. مات أبوه وهو صغير ، فقامت أمه على تربيته ، وضاقت بعشقه الشديد للكراريس ودكاكين الوراقين ، وانصرافه التام للقراءة عن السعى إلى تدبير لقمة العيش .. فجأته يوما حين دخل الدار وطلب الطعام ، بالأطباق وقد أحضرت عليها أوراقًا وكراريس ، فلما نظر إليها مدهوشا متعجبا ، قالت له : «دونك ما تحب فاشبع منه» !

(*) المال ١٥/٦/٢٠١٠ .

حين روى لشيخه : أبو عمران مويس بن عمران ما فعلته أمه ، نفحه الشيخ خمسين دينارًا ليسرع إلى أمه بالدقيق والزبيب والزيت والتمر .. التفت الشيخ إلى نبوغه وامتيازه فكفله برعايته ، وحضه على مجالسة أهل العلم والأدب ، والاغتراف من منابع المعرفة .. ووالاه بكتابات السابقين والمعاصرين ، ودفعه إلى حفظ قصائد صفوان الأنصارى وسليمان الأعمى فى ردهما على بشار بن برد فى تفضيله النار على الأرض وما وراء الطبيعة ، وأتاح له وشجعه على الاستماع إلى شيوخ عصره : الخليل بن أحمد ، وثمامة بن أشرس ، والعلاّف ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ..

دخل الجاحظ يوما إلى داره لا يخفى انزعاجه لما حدث لمهدى ابن القصَّاب الذى عدا عليه كلب فعقره وأصابه إصابات بالغة فى وجهه وتحت عينيه ، فانتهزتها أمه الضيقة بطباعه الغريبة ـ انتهزتها فرصةً لتحذيره من مداعباته الثقيلة مع الكلاب وانشغاله بمراقبة الثعابين والجرذان ، والضفادع والفراشات ، وطفقت تقول له : «العاقل من يشغل نفسه بما يملأ كمه من أكياس الدراهم! » وجعلت تحذره مما سوف يحيق بصديقه الذى لا بد سيصاب بداء الكلب ، وانطلقت الأم القلقة عليه تصف له الأعراض التى سوف تلم بصديقه .. وتقول له : «مادام الكلب قد عقره فلا بد أن يكون مكلوبا .. وسيبدأ صاحبك فيعطش أشد العطش ، وينبح ويبول علقا فى صورة الكلاب قبل أن يموت »!

ولكن تحذير الأم لم ينه الجاحظ عن مراقبته للحيوان ، بل زاده نهما للدراسة والمراجعة التى أثمرت فى النهاية موسوعته الكبرى : «الحيوان» .. وفيها جمع كل غريب ومفيد من معارف ونوادر وكتابات عن عالم الحيوان .

كانت ميزة الجاحظ فى اقترابه من المجتمع وتأمله فى حياة الناس ، وفئات المهمشين ، ودراسته لأحوالهم ، وفى روح الدعابة المتأصلة فيه ، فضلا عن تجديده اللافت فى أسلوب الكتابة .. أما سخريته فقد تجلت فى الكثير من كتاباته ، وتجلت فى كتابه عن «البخلاء» الذى جمع فيه نوادرهم وتهكم على سلوكهم وتصرفاتهم وشحهم ، حتى وصف أحدهم بأنه يكاد من فرط بخله يتنفس من منخر واحد !

شهد له القدامى والمحدثون بالنجابة والتميز ، فقال ابن العميد عن كتبه : «إنها تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا» .. ونوه الأستاذ أحمد أمين إلى أن كتاباته مرآة للحياة الاجتماعية فى عصره ، وفى الوقت الذى لم يدرك معاصروه أو يقدروا قيمة النقلة التى انتقل بها فى أسلوب الكتابة الأدبية ، حتى رماه بعضهم بالعامية والركاكة والابتذال ، أنصفه الأستاذ توفيق الحكيم ، فوصف هؤلاء بالمتنطعين ، وكتب غير مرة منوها بنبوغ الجاحظ الذى سبق عصره ، ولافتا إلى أنه قام بعملية تجديد وبعث فى اللغة العربية وحطم السدود بين عالم الأموات وعالم الأحياء ، وأنه لو سارت الأمور من بعده سيرها الطبيعى طبقا لشريعة التطور لكان للأدب واللغة العربية شأن آخر من زمن بعيد .

من كتاب «البيان والتبيين» عرفنا عن الجاحظ أنواع الدلالات من لفظ وإشارة وإيماءة وخط وعقد ، ودلالة الأصوات ، وعناصر الكتابة والخطابة ، وضروب من أشهر وأبلغ الخطب والرسائل ، وبالصفات الواجبة فى الخطيب ، وتلك الآفات التى يمكن أن تعوقه من عيوب فى النطق أو اللسان .. كاللثغة (وهى تحول اللسان من حرف إلى حرف ، كقلب السين ثاءً ، أو الراء غينا) ، والفأفأة (وهى كثرة ترديد الفاء فى الكلام) ، والتمتمة (وهى كثرة

ترديد التاء والميم ، فلا يكاد المتكلم يُفهم) وغيرها ، ومما نقله الكُتَّاب عنه ـ استفاد الإمام العالم أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ـ فى كتابه المعروف «تقويم اللسان» .. ومن يقرأ الجاحظ يلاحظ فى معالجاته عنايته اللافتة بالمقابلة بين الجيد والردىء ، فيراه مثلا يضع الحمقى والمجانين ومن إليهم ـ أمام البلغاء والحكماء والمفوهين .

كنت أحب أن أحدثك أكثر عن ما تضمنه كتاب «البيان والتبيين» .. هذا الكتاب الضافى الذى تعلم جيلنا منه الكثير ، ويكفيك أن تعرف أنه ظل لأكثر من ألف عام مرجعا أساسيا لدارسى الأدب العربى .. أتاح للجاحظ كل هذا الإنتاج المتنوع الغزير المتميز ، معرفته الواسعة ومراقباته وملاحظاته الفاحصة ، وتجربته الحية .

كان الجاحظ إلى ذلك كله ، ساخرا كبيرا .. عرف إلى جوار ايقاعية أسلوبه وقصر عباراته واستطراداته ، بروحه الساخرة التى سخرت من كل أشكال القبح الحسى والمعنوى فى زمانه ، فاجتمعت له صفات وصبت فيه روافد يندر أن تجتمع لعبقرى واحد .

من مفارقات المقادير أن يموت هذا الأديب العبقرى ، عاشق المعرفة ، تحت أكوام الكتب التى سقطت برفوفها عليه فى داره وقد جاوز التسعين ، فأودت بحياته شهيدا للكتب !

حين نُعى الجاحظ إلى الخليفة العباسى المعتز بالله ، قال مكبرا لملكاته وتنوع إمكانياته : «أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟» ، فقيل له من أحد الحاضرين فى بلاطه : «ليت شعرى يا أمير المؤمنين .. وأى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟!».

*****